بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 49 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة الإنسان**

التاريخ:27\09\2023 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري**

ما زال الكلام في الآية الخامسة عشر، وهي قوله: ﴿وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَواريرَا﴾. بقي لدينا بعض البحوث المرتبطة بهذه الآية.

كلمة ﴿مِنْ﴾ في هذه الآية المباركة ظاهرة في أنها لبيان الجنس، بمعنى أن الآنية من جنس الفضة. وهذا مما لا إشكال فيه ولا شبهة تعتريه.

إنما الكلام في ﴿كانَتْ﴾ التي تدل على وقوع الحدث الناقص في الزمان الماضي؛ إذ من المعلوم أن هذا التنعم بمعناه المصدري لم يتحقق بعد؛ وذلك لأن الكلام في هذه الآيات عن الجنة، والتنعم في الجنة إنما يكون بعد البعث، أما قبل البعث وما بين البعث والقبر فيوجد برزخ إلى يوم يبعثون. فما هو وجه التعبير ﴿كانَتْ﴾؟

هذا الكون في كثير من الآيات القرآنية التي يكون المتكلم فيها هو الباري تبارك وتعالى، لا أنه يحكي كلام غيره، في الأعم الأغلب تكون منسلخة عن الدلالة على الزمان، من قبيل قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنينَ﴾[1] ومن قبيل قوله تبارك وتعالى: ﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾[2] وما شابه ذلك.

فإن الكينونة في هذه الآيات منسلخة عن الدلالة على الزمان، وتدل على اللياقة نفياً وإثباتاً ﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبينَ﴾ أي لا يليق بنا، ولا يليق بشأننا أن نعذب قبل أن نبعث رسولاً. ﴿وَكانَ حَقًّا﴾ أي من شأننا ومن لياقتنا أن ننصر المؤمنين، فهي منسلخة الدلالة على الزمان.

---

[1] الروم: 47

[2] الإسراء: 15

فهل الأمر كذلك في هذه الآية المباركة ﴿كانَتْ قَواريراَ﴾ أم أن الكينونة هنا مثل الكينونة الواقعة في سياق الأمر التكويني وهي ﴿كُنْ فَيَكُون﴾[3]؟

على كل تقدير لا ينبغي أن نحمل هذه الكينونة على دلالة إنشاء شيء في الزمن الماضي؛ لما عرفت من أن هذا التنعم إنما هو في المستقبل. كما أنه ينبغي أن نلتفت إلى أن التعبير بالأفعال التي تدل على الحدوث والانقطاع، وعلى الأزمنة المختلفة، لا تتنافى مع الاعتقاد بأن الله تبارك وتعالى فوق الزمان والمكان؛ باعتبار أن هذه من الأفعال المضافة، من قبيل الرازقية، الله سبحانه وتعالى كصفات فعل الآن رزق، أي قبل الآن لم أكن موجوداً. نعم الرازقية بمعنى كونها من صفات الذات الثابتة لله سبحانه وتعالى وجدت أنا أم لم أوجد، فالتخصص الزماني لم ينشأ من تحويل المجرد إلى مادة، وإنما نشأ من المضاف إليه، وهو عالم الإمكان مثلي ومثلك.

وإنما الإشكال في الآية بلحاظ أن التنعم لم يحصل بعد، فكيف يعبر بالزمن الماضي؟

هذا أمره سهل، هذا من قبيل قوله تبارك وتعالى: ﴿ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾[4] لم ينفخ في الصور بعد- ولم يصعق أحد بعد. وإنما هذا التعبير شائع في مورد الأمور المتحققة الوقوع، وإن كانت في المستقبل. وهذا تعبير شائع عند العرب، أن نعبر بالفعل الماضي عن حدث لم يحصل بعد، لكن لكونه قطعي الحصول نعبر بالفعل الذي يدل على التحقق والانتهاء، هذا فيه نوع من تأكيد الحدث.

فإذاً لا مانع من أن نلتزم في المقام أنه قد حُقق لهؤلاء الأبرار أن الله نعمهم وصيّر الآنية التي هي من فضة قوارير.

ومن جملة البحوث التي طرحها بعض المفسرين في المقام، أن القوارير الذي هو جمع قارورة، القارورة عبارة عن زجاجٍ، ومن طبع الزجاج أنه شفاف، يرى من خلاله، وأنه سريع الانكسار. مثل القلب:

---

[3] البقرة: 117
[4] الزمر: 68

إِنَّ القُلوبَ إِذا تَنافَرَ وُدُّها شِبهَ الزُجاجَةِ كَسرُها لا يُشعَبُ

فالقوارير من جنس الزجاج، وجنس الزجاج مغاير لجنس الفضة، فكيف نحل هذه الإشكال؟ عندنا آنية وأكواب صنعت من جنس الفضة وصارت قوارير، فما يصنع من جنس الفضة لا يكون من القوارير.

هناك مذاهب شتى عند العلماء في دفع هذا التساؤل، العلامة الطباطبائي ﵀ يقول: يوجد في الآية تشبيه بليغ، والتشبيه البليغ هو ذلك التشبيه الذي تحذف فيه أداة التشبيه، ويحذف فيه وجه الشبه. تقول: زيد أسد. لشدة التشابه بين زيد وأسد حذفت الواسطة التي تدل على التشابه، فصار كأن زيد هو عين الأسد.

طبعاً البليغ هنا بمعنى المبالغة، لا بمعنى البلاغة، وإلا يوجد ما هو أكثر منه بلاغة.

العلامة الطباطبائي ﵀ يرى أنه في هذه الآية يوجد تشبيه، فإذا يوجد تشبيه فلا الفضة صار زجاجاً ولا الزجاج صار فضة. وإنما هذه الفضة لصفائها ونقائها صارت تشبه صفاء ونقاء الزجاج (القوارير) فحينئذ تنحل الإشكالية.

هذا الجواب صحيح، ويرفع لنا الإشكال. لكن هل ينسجم مع ظهور اللفظ؟ وإلا لا نريد أن ندفع الإشكال كيفما كان، إذ يمكن أن نأتي بجواب إسكاتي، كقدرة الله سبحانه وتعالى يمكن أن تجعل الفضة زجاج. بل نحن نريد جواب ينسجم مع ظهور اللفظ.

تقول الآية الشريفة: ﴿وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَواريرَا﴾ لو كنا نحن وهذه الآية فقط كان ذلك الجواب له وجه، لكن جاءت الآية التي بعدها لتقول: ﴿قَواريرَا مِنْ فِضَّةٍ﴾ فلا يمكن حينئذ أن تلتزم بالتشبيه البليغ في المقطع الأول، فماذا تفعل بالمقطع الثاني؟ فلا يمكن أن نلتزم حينئذ بالتشبيه البليغ. فإذاً هذا الجواب لا يمكن الموافقة عليه.

الفخر الرازي ذكر جملة من الأجوبة، بعض هذه الأجوبة من قبيل الأجوبة الإسكاتية، تتكلم عن فضة الدنيا وقوارير الدنيا، فالقوارير في الدنيا من جنس والفضة من جنس آخر فيأتي الإشكال فيه. أما هنا نحن نتكلم عن الآخرة ـ وفي الآخرة يمكن أن تكون القوارير من فضة، ولا مانع من ذلك.

هذا الجواب -كما ذكرت وأشرت- هو جواب إسكاتي، أي الباري سبحانه وتعالى في آيات النعيم وفي آيات العذاب ذكر لنا أسماء معروفة لدينا، وعبر بتعابير بليغة يفهمها العربي، وإلا حينئذ كل لفظ من هذه الألفاظ ينبغي أن نقول في النهاية الله الأعلم ما هو المقصود منه. نظير الذين هم من المشبهة ولا يريدون أن يكونوا من المشبهة، فيقولون الله سبحانه وتعالى قال له يد، فهو له يد، أما هذه اليد ليست مثل أيدينا، بل يد أخرى. هذه الألفاظ استعملت في معانيها.

هذا الجواب أيضاً لا نقبله.

هناك جواب آخر يحتاج إلى تحقيق، أن هذه الشبهة إنما جاءت ونشأت من دعوى أن القوارير من جنس الزجاج، فإذا كانت من جنس الزجاج كيف تصبح من فضة؟ وهذا أول الكلام، لا نسلم أن القارورة من جنس الزجاج. نعم القوارير الخارجية الأكثر أن تكون زجاجية، لكن في اللغة العربية القارورة لم يؤخذ في مدلولها اللغوي أنها من جنس الزجاج.

وهذا الجواب لا بد من تحقيقه والوقوف عنده، يأتي عليه الكلام.